الفصل الثاني والخمسون بعد المئة

تدوين الشعر الجاهلي

ليس في الشعر الجاهلي بيت واحد يستطاع أن يثبت انه كان مدوناً في الجاهلية وان رواة الشعر وحفظته وجدوه مكتوباً بأيدي جاهلية ، فنقلوه عنها . ولم يتجاسر على ما أعلم أحد من رواة الشعر أو حافظ من حفّاظه على الادعاء بأنه نقل ما عنده من شعر جاهلي من ديوان جاهلي ، أو من قراطيس جاهلية ، أو من مادة مكتوبة أخرى تعود أيامها الى الجاهلية . فكل ما وصل الينا من هذه البضاعة ، انما هو من عهد الكتابة والتدوين ، وعهد التدوين لم يبدأ إلا في الاسلام ، وأول تدوين للشعر ، انما كان في عهد الأمين .

وعدم وصول شعر جاهلي الينا مدون في أيام الجاهلية ، أو منقول عن مكتوبات جاهلية ، ثم عدم ادعاء أحد من قدماء الرواة انه قد نقل من دواوين أو قراطيس جاهلية ، يحملنا على القول بعدم تدوين الجاهليين لشعرهم وبعدم اهتمامهم بتسجيله. فلمَ وقع ذلك ؟ ولمَ أحجم الجاهليون عن تدوين شعرهم ، وهو تراثهم الخالد وسجلهم وديوانهم الذي به حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله ، وآثار صحابته والتابعين ؟ وقال علماء الشعر : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب

مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك ، وذهب عنهم كثير »[1] . « قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[2] .

ومعنى هذا ان الشعر الجاهلي لم يكن مدوناً ، وانما كان محفوظاً في الصدور ، وقد ورد رواية باللسان ، فكانوا يتلونه حفظاً لا عن صحيفة أو كتاب ، يؤيد ذلك ما ورد في الأخبار من ان (بني أمية) ، وقد كانوا شغوفين جداً بالشعر القديم ، ربما اختلف الرجلان منهم في بيت شعر ، فيرسلان راكباً الى (قتادة) يسأله ، عن خبر ، أو نسب ، أو شعر ، وكان قتادة أجمع الناس . ولقد قدم عليه رجل من عند بعض أولاد الخلفاء من بني مروان ، فقال لقتادة : من قتل عمراً وعامراً التغلبيين يوم قِضة ؟ فقال : قتلها (جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) . قال فشخص بها ثم عاد اليه . فقال : أجل قتلها جحدر ، ولكن جميعاً ؟ فقال : اعتوراه فطعن هذا بالسنان ، وهذا بالزج فعادى بينهما[3] . وعلى ما في هذا الخبر من أثر الصنعة والتكلف ، فإن فيه دلالة على شغف الأمويين بسماع أخبار الأيام الماضية ، وبعدم وجود مدونات في ذلك الوقت ، تضم الشعر والأخبار والنسب ، لذلك ، كانوا يرسلون الى خاصتهم ومن يرون فيه العلم بهذه الأمور للاستفسار منهم عما يريدون الوقوف عليه .

ويؤيد ذلك أيضاً ما ورد من أن الرسول كان اذا أراد سماع شعر شاعر ، سأل من كان في حضرته من يحفظ من شعر فلان ؟ فينشده عليه من قد يكون حافظاً له ، ثم ما يروى من ان الصحابة كانوا يحفظون الشعر ، ومن انهم كانوا اذا أرادوا الوقوف على شعر شاعر لم يحفظوا شعره ، سألوا غيرهم ممن يحفظه عنه . ولم نسمع في الأخبار ، ان أحداً من الصحابة ، كان يملك ديواناً ، أو كتاباً فيه شعر ، أو خبر ، أو نسب ، وانهم كانوا يرجعون الى المدونات ، في مثل هذه الحالات .

ولكن ما ذهبنا اليه من عدم وجود تدوين للشعر الجاهلي ولأخبار الجاهلية ،

---

١ المزهر (٢/٤٧٣ وما بعدها) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) .
٢ المزهر (٢/٤٧٤) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) .
٣ العسكري ، التصحيف والتحريف (٤) ، مصادر الشعر الجاهلي (١٩٨) .

تنفيه روايات تزعم ان الجاهليين كانوا يدونون أشعارهم ، فقد روي ان (النعمان ابن المنذر) أمر « فنُسخت له أشعار العرب في الطنوج وهي الكراريس ، ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن عبيد الثقفي ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[1] . وروايات تذكر انه « قد كان عند آل النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول،وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان أو ما صار منه »[2] . وروايات تقول ان العرب كانت شديدة العناية بشعرها ، مبالغة في المحافظة على الجيد منه،فأمرت بكتابتها بماء الذهب على القباطي وبتعليقها على الكعبة ، إعجاباً بها وإشادة بذكرها . وقد عرفت تلك القصائد بالمذهبات وبالمعلقات وبالسموط[3]. وروايات تذكر ان الملك كان اذا استجديت قصيدة يقول: « علّقوا لنا هذه لتكون في خزانته »[4] .

وتنفيه أيضاً روايات أخرى تفيد أن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يقرأون ويكتبون، كالذي جاء عن (عدي بن زيد) العبادي ، وعن (المرقش الأكبر) من أنه كان قد تعلم الكتابة من رجل من أهل الحيرة ، فصار يكتب أشعاره ، وكالذي يظهر من بيت لابن مقبل يفيد أن عرب أواسط جزيرة العرب كانوا يدوّنون أشعار الشعراء[5] .. وقد ذكر أن (سعد بن مالك) والد (المرقش) ، أرسله وأخاه الى رجل من أهل الحيرة فعلمها الكتابة[6] . وروي أنه كان يكتب بالحميرية[7] ، فلا يعقل إذن أن يدوّن أمثال هؤلاء الشعراء الكتاب القرّاء شعرهم، أو بعض شعرهم المستجاد على الأقل !

وتنفيه الرواية القائلة إن (لقيط بن يعمر) الإيادي ، كتب قصيدة وأرسلها

---

١ المزهر (١/٢٤٩) ، (النوع الخامس عشر ٠ معرفة المفاريد) ، ابن جني ، الخصائص (١/٣٩٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، (الطنوج) ٠

٢ المزهر (٢/٤٧٤) ، (ذهاب الشعر وسقوطه) ، تاج العروس (٢/٧٠) ، الجمحي طبقات (١٠) ٠

٣ المزهر (٢/٤٨٠) ، (مشاهير الشعراء) ٠

٤ المزهر (٢/٤٨٠) ، (مشاهير الشعراء) ، العمدة ، لابن رشيق (١/٩٦) ٠

٥ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٣) ، مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد الرابع ، الجزء الثاني) ، (١٩٥٦ م) ، (ص ٥٢٢) ٠

٦ الاغاني (٦/١٣٠) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) ٠

٧ الشعر والشعراء (١/١٣٩) ٠

الى قومه (إياد) يحذرهم فيها من مجيء جيش كسرى اليهم ، للإيقاع بهم ، وذلك في قصيدته التي استهلها بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط الى مَنْ بالجزيرة من إياد[1]

وتنفيه روايات أخرى تشير الى أن العرب في صدر الإسلام ، كانوا يدوّنون الشعر ويوزعونه بين الناس لينتشر بينهم ، فلما هجا (النجاشي) الأنصار ، اجتمع سادتهم وتذاكروا أمره ، ثم ذهب قوم الى (حسان)، فنظم شعراً في هجائه ، كتبه غلمان الكتاب[2] ، وما كانت الغاية من تدوين الغلمان له ، إلا اذاعته ونشره بين الناس . وروي أن (عبدالله بن الزبعرى) ، و (ضرار بن الخطاب) الفهري ، قدما المدينة فتلاحيا مع (حسان) ، في أمر الشعر ، وقالا شعراً مما كانا قالاه في الأنصار ، وكان عمر قد نهى عن رواية شعر الهجاء حذر الفتنة ، فغضب (حسان) منهما ، وذهب الى (عمر) ، فأخبره بما وقع ، فأرسل وراءهما ، وطلب من حسان أن ينشدهما مما قاله لهما ، فأنشدهما ، فلما انتهى من إنشاده كتب ذلك ، وحفظ مع شعر الأنصار ، وكانوا يكتبونه حذر بلاه[3] . وروي أن (طلحة) ، أنشد قصيدة ، فما زال شانقاً ناقته حتى كتبت له[4] .

غير اننا اذا ما تتبعنا تأريخ ورود هذا الذي ذكرته عن وجود التدوين في الحيرة وارتفعنا به حتى نصل به الى أصله ، نجد انه جاء كله نقلاً ، وقد أخذه المتأخرون عن المتقدمين ، والمتقدمون عن طبقة أقدم ، حتى نصل الى مرجع واحد هو آخر سلسلة السند ، الذي ينتهي بـ (حماد الراوية) و (ابن الكلبي) . فحماد هو صاحب الزعم المتقدم ، القائل ان النعمان بن المنذر ، أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج[5] ، وابن الكلبي هو صاحب الخبر القائل ان العرب علقت القصائد السبع على الكعبة ، وان العرب اختارتها من بين القصائد الجاهلية الكثيرة فوضعتها على أركان الكعبة ، إعجاباً بها وإشادة بذكرها !

---

١ الشعر والشعراء (١/١٢٩) ، الاغاني (٢٠/٢٣) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (١٢٥) .
٣ الاغاني (٤/١٤٠ وما بعدها) .
٤ الزمخشري ، الفائق (١/٦٧٧) .
٥ المزهر (١/٢٤٩) ، (النوع الخامس عشر) .

وهناك رواية أخرى مشابهة لرواية حماد عن تعليق المعلقات ، يرجع سندها الى (ابن الكلبي) ، هذا نصها : « قال ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ وقيل سنة ٢٠٦ : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرىء القيس ، عُلّق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر اليه ، ثم أحدر فعلقت الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدّوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا ان عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة »[1] . « وزاد بعضهم انهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم »[2] . ولابن الكلبي زعم آخر له علاقة بهذا الموضوع ، فقد ذكر انه كان يقول : « كنت أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من ولي منهم لآل كسرى ، وتأريخ نسبهم ، من كتبهم بالحيرة »[3] .

فنحن اذن أمام رجلين يرجع اليهما خبر وجود تدوين للشعر الجاهلي ، كان أحدهما من أمرس الناس بالشعر الجاهلي ، وكان ثانيهما من أشهر رجال الأخبار . ولا نعرف أحداً تقدم عليهما : زعم هذا الزعم ، أو ادعى هذه الدعوى ! ثم اننا لا نجد في مؤلف من المؤلفات الاسلامية التي وصلت الينا ما يفيد ان أحداً قد نقل شيئاً من مدون جاهلي ، أو قرأ فيه ، خلا ما ورد عن (ابن الكلبي) من انه كان يستخرج أنساب آل نصر وتأريخ من حكم منهم ومدد أعمارهم وما الى ذلك من بيع الحيرة[4] .

ولا يعقل بالطبع تصور انفراد حمّاد وحده بمعرفة أمر ديوان النعمان بن المنذر ، دون سائر الرواة وعشاق الشعر ، وبينهم من كان لا يقل حرصاً ولا تتبعاً له عن حمّاد . ولا يعقل أيضاً تصور بلوغ الحرص والأنانية بآل مروان درجة جعلتهم يضنون حتى بالتلويح أو باراءة ذلك الديوان الجاهلي بعضهم بعضاً . ولو كان عند آل مروان ذلك الديوان حقاً ، لافتخروا بوجوده لديهم ، ولعرضوه على الناس ، ولأخذوا منه الشعر القديم ، ولما استعانوا بالرواة من حمّاد وأمثاله ليرووا لهم الشعر الجاهلي وليجمعوا لهم ذلك الشعر ، وحمّاد نفسه شاهد على ذلك.

---

١ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/١٨٧ وما بعدها) .
٢ الرافعي ، تأريخ آداب العرب (٣/١٨٦) .
٣ تأريخ الطبري (٢/٣٧) .
٤ تأريخ الطبري (٢/٣٧) .

حيث كانوا يستدعونه من العراق ليسألوه أمـــر شعر ، خفي عليهم ، أو شعر لا يعرفون عنه شيئاً ، ثم كيف يسكت رواة أهـــل الكوفة عن هذا الديوان ، فلا يشيرون في أخبارهم ورواياتهم اليه ، ولا يلحقون به سندهم في روايتهم للشعر؟ قال (ابن النديم) : « قال أبو العباس ثعلب : جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وردّ الديوان الى حمّاد وجناد »[1] ، فلو كـــان لدى آل مروان ديوان جاهلي قديم ، فهل يعقل ترك الوليد ذلك الديوان وذهابه الى حمّاد وجنّاد يستعين بما عندهما من دواوين شعر ، أو من ديوان شعر ليجمع له ديواناً بأشعار القدماء ، فلما جمع له ديواناً من ديواني حماد وجنّاد أعادهما عليهما ! ولو فرضنا أنـه كان قد استعان بهما ، لأنهما كانا قد جمعا شعر شعراء لم يكن عنده شعرهم ، فإن الرواة ما كانوا ليسكتوا هـذا السكوت المطبق عن ذلك،ولقالوا على الأقل إنه قد كان عنده ديوان شعر جاهلي، لكنه لم يكن تاماً ، يضم كل أشعار الجاهليين ، فاستعان بهما لسدّ هذا النقص. ولو كان ديوان حمّاد أو ديوان جناد من دواوين أهل الجاهلية ، لما سكت العلماء عن ذلك ، ولما سكت حماد نفسه ، أو جنّاد من التنويه به ، لما لهذا التنويه من أهمية بالنسبة لهما ، ولإثبات أنهما كانا صادقين في رواية الشعر ، وانهما استقيـا الشعر من منابع أصيلة لا يرتقي اليها الشك .

ثم انه لو كان لحماد أو غيره من أهـــل الكوفة ديوان جاهـلي ، أو ان أهل الكوفة كانوا قد وقفوا على ديوان النعمان بن المنذر أو على كتب من كتب أهل الحيرة في الشعر أو في التواريخ والأخبار ، لما سكتوا عن ذلك أبداً،ولأسندوا روايتهم الى تلك المدونات ، رداً بذلك على أهل البصرة الذين اتهموهم بالافتعال وبنحل الشعر على ألسنة الشعراء الجاهليين ، وبأخذهم من أفواه أعراب لا يطمئن اليهم ، على الأقل .

إن سكوت الرواة وعلماء الشعر عن أمر هذا الديوان ، واقتصار خبر وجوده على روايات حماد ، يحملنا هذا السكوت الغريب ، على الشك في هذا المروي عنه وعلى التريث ولو مؤقتاً في تصديقه ، حتى يقوم دليل جديد مقنع بوصول شيء من مكتوبات أهل الحيرة الى الاسلاميين يمكننا من إبداء رأي علمي واضح في هذا الموضوع .

---

١ الفهرست (١٤٠) .

وقد سكتت كل الأخبار التي تحدثت عن (طنوج) النعمان بن المنذر ، عن الجهة التي دخل الديوان في ملكها . كما سكتت عن مصيره النهائي . فأين ذهب يا ترى ذلك الديوان ؟ ولِمَ لم ينقل منه أحد ؟ ولِمَ لم يشر الى وجوده شخص آخر غير حمّاد ؟

ولم أعثر حتى الآن على خبر يفيد علم أحد من المتقدمين على حماد بوجود ديوان شعر جاهلي مدوّن ، ولا ينقل أحد من الرواة وبضمنهم حماد نفسه من هذا الديوان أو من ديوان آخر يعود تأريخه إلى أيام الجاهلية . مع أن بين عشاق الكتب من كان يقتني الكتب والقراطيس القديمة ، ويتهالك ويستهتر في المحافظة عليها وفي العناية بها ، وبينهم من كان يملك ما شاء الله منها . وقد قص (ابن النديم) الورّاق المتهالك في البحث عن الكتب قصصاً عن القراطيس والكتب القديمة وعن استهتار الناس بجمع الخطوط العتيقة ، ولم يشر الى عثوره هو أو غيره على صفحة واحدة مكتوبة قبل الإسلام في الشعر أو في النثر . ولو كان قد سمع بهذه الأوراق ، لما تركها تمرّ سبيلها ، فلا يراها أو يسمع عنها ممن وقف عليها ورآها على الأقل[1] . نعم : ذكر أنه « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعا ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان . وكان الخط شبه خط النساء »[2] . وهو خبر تظهر عليه آثار الصنعة ، والوضع .

وقد يكون خبر الديوان ، وخبر (الطنوج) من مفتعلات (حماد) و (ابن الكلبي) ، لإظهار سبب تفوق أهل الكوفة على أهل البصرة بالعلم بالشعر ، كما يظهر ذلك جلياً من نص الخبر ، وهو « ومن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة »[3] ، ولإظهار سبب تفوق (ابن الكلبي) على غيره من أهل الأخبار في رواية أخبار ملوك الحيرة ، غير اني لا أستبعد مع ذلك وجود دفاتر وكتب في خزائن ملوك الحيرة وفي قصورها وكنائسها ، قد كان فيها شعر ونثر وأخبار

---

١ الفهرست (٦٧) ، (المقالة الثانية من كتاب الفهرست) .

٢ الفهرست (ص ١٣ وما بعدها) ، (الكلام على القلم العربي) .

٣ الخصائص (١/٣٩٢) .

ومراسلات وسجلات بالأموال وما شابه ذلك ، لوجود ديوان حكومي عندهم تولاه (عدي بن زيد) ، ووجود علماء ورجال دين عندهم ألّفوا الكتب في أمور الدين وفي العلوم التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، لكنها تلفت وهلكت بسبب الأحداث التي وقعت في الحيرة أيام الفتح الاسلامي لها ، وارتحال الناس عنها وفي جملتها رجال الدين ، وتهدم كنائسها وبيوتها بسبب نقل حجارتها الى الكوفة لبناء بيوتها بها ، مما سبب تلف تلك المدونات المكتوبة على أدم وقراطيس سهلة التلف ، والتي لا يمكن لها مقاومة مثل هذه الأحداث . ولا يستغرب ذلك، فقد تلفت نسخ القرآن الأولى مثل نسخة (حفصة بنت عمر) ، ونسخة (عثمان) وهلكت رسائل الرسول وكتبه على أهميتها ، وذهبت الصحف القديمة التي دوّن بها الحديث أو سيرة الرسول ، وغير ذلك،في أيام الراشدين وبني أمية ، فهل يستغرب بعد ذلك ذهاب ما دوّن في أيام ملوك الحيرة وانطماس أثره !

وقد تعرض (بروكلمن) لموضوع تدوين الشعر أو عدم تدوينه عند الجاهليين، فقال : « ومن ثم يعد خطأ من مركليوث وطه حسين ان أنكرا استعمال الكتابة في شمال الجزيرة العربية قبل الاسلام بالكلية ، ورتبا على ذلك ما ذهبا اليه من ان جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ، ومنحولة لأسمائهم .

ولكن بديهياً ان الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية . فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه ، يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس ، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده. وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً .

وعن الرواة كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل ، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه . ولهذا لم يمكن التحرز عن السقط والتحريف ، وإن لاحظنا ان ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تحد على الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث »[1] .

وقد تعرض المستشرق (كرنكو) لموضوع الكتابة والتدوين عند العرب ، وقد ذهب الى أن نظم الشعر مرتبط بالكتابة ، بدليل أن بعض القوافي تظهر حقيقتها

---

١ بروكلمن (١/٦٥) .

للعيان أكثر منه للسمع ، بحيث أن الحروف وليست الأصوات ، هي التي تلعب دوراً هامـاً في الشعر[1] . غير أن رأيه هذا لم ينل تأييداً من غالبية المستشرقين . وذهب (كولدزيهر) ، الى احتمال تدوين العرب لشعر الهجاء ، لما لهذا النوع من الشعر من أهمية عندهم ، فإن في شعر الشاعرة (ليلى) الأخيلية :

أتاني من الأنبـاء أن عشيرة بشوران يزجون المطي المذللا
يروح ويغدو وفدهم بصحيفة ليستجلدوا لي،ساء ذلك معملا[2]

وفي شعر ابن مقبل :

بني عامر ، ما تأمرون بشاعر تخيّر بابات الكتاب هجائيا[3]

غير أن بعضهم يرى صعوبة تصور ذلك ، لعدم وجود أدلة مقنعة تثبت هذا الرأي[4] .

وقد توقف (بلاشير) أيضاً في قضية تدوين الرواة لشعر الشاعر الذي تخصصوا به ، أو برواية شعر أي شاعر كان . يرى احتمال تـدوين بعض الرواة الحضر لبعض عيـون الشعر ، غير أنه يعود ، فيرى أن ذلك مجرد احتمال ، وإن من الصعب اثباته بأدلة مقنعة ، ويذهب الى أن رواية الرواة ، كانت رواية شفوية كذلك[5] .

ولا استبعد احتمال تدوين الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحسنون الكتابة والقراءة لأشعارهم ، كما لا استبعد احتمال تدوين رواة الشعر للشعر ، ولا سيما ما نبـه وشرف منه ، غير أننـا لا يمكن أن نقول إن الشاعر كان إذ ذاك يدوّن كل شعره ، أو أن الرواة ، كانوا يدونون كل ما حفظوه من الشعر ، لأن هـذا النوع من التدوين لم يكن مألوفاً عندهم ، كما كان يكلف ثمناً باهظاً ، لا قبـل للشاعر أو للراوية بتحمله ، ثم إن القرطاس كان نادراً عندهم ، والتدوين على

---

١ بلاشير ، تأريخ الادب العربي (٩٤ وما بعدها) .
٢ المصدر نفسه (ص ٩٨) .
٣ العمدة (١٥٩/٢ وما بعدها) ، الحيوان (١١٢/٧) ، ديوان ابن مقبل (٤١٠) .
٤ بلاشير (٩٨ وما بعدها) .
٥ بلاشير (١٠١) .

الأدم ، غالياً ، ينـــوء بثمنه الشاعر أو الراوية ، ويأخذ مكاناً ، ولا سيما اذا كان الشاعر من الأعراب ، وأنا لا استبعد احتمال وجود مثل هذه المدوّنات عند الحضر ، مثل أهل الحـــيرة ، لانتشار الكتابة بينهم ولشيوع التدوين عندهم ، ولكن الأحداث وعوامل الطبيعة أتلفت تلك المدوّنات ، فلم تسقط لهـــذا السبب في أيدي رواة الشعر والأخبار .

ولا تزال الرواية الشفوية مستعملة حتى اليوم ، مع وجود التدوين وكثرة الورق. فلأغلب شعراء العراق اليوم مثلاً رواة يدونون شعر الشاعـــر ويحفظونه في الوقت نفسه حفظاً ، فإذا حضروا مجلساً ، وجاء ذكـــر الشعر ، أو شعر شاعر يروون شعره تلوه حفظاً على السامعـــين . وفي النجف رواة شعر ، دونوا شعر شعرائها المحدثين مثل الحبّوبي وغيره في دواوين ، وحفظوه في الوقت نفسه حفظـــاً في قلوبهم ، ومنهم من حفظ شعره من غير تدوين له ، وقد يزيد ما يحفظونه على ما هو مدون ، بسبب ان الشاعر قد يحضر مناسبة تهزه فيقول فيها شيئاً، فيحفظه رواته والمعجبون به ، وقد يفوت تسجيله على رواته الذين يلازمون الشاعر ، فلا يقفون على خبره ، ويدفع الإعجاب بالشاعر المعجبين به على التقاط شعره وحفظه في أدمغتهم حتى كأنهم أشرطة تسجيل حساسة ، لا يفوتها من التسجيل أي شيء.

وبسبب عدم لجوء الجاهليين الى تدوين شعرهم في الغالب ، لأسباب عديدة ، منها ندرة الورق ، وغلائه ، واعتمادهم في حفظه على الذاكـــرة ، هلك أكثره بموت حفّاظه ، وأصيب قسم منه بتحريف وتغيير ، وزيد بعض منه ، ونقص منه بعض آخر ، وصنع شعر على المتقدمين لأغراض مختلفة ، ونسب الشعر الى جملة شعراء ، ورويت أبيات بروايات مختلفة ، وما كان ذلك ليحدث ، لو انهم كانوا قد عمدوا الى تدوينه وتثبيته . « قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير . ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه ، قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذي صح لهما قصائد بقدر عشر ، وان لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة . وإن كان ما يروى من الغثاء لهما فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى ان غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير ان الذي نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذلك ، فلما قلّ كلامهما

حُمل عليها حمل كثير »[1] . وقد ذكر (ابن سلام) ان « عبيد بن الأبرص قديم عظيم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب لا أعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذَّنوب

ولا أدري ما بعد ذلك[2] ».

وذكر أنه قد سقط من شعر شعراء القبائل الشيء الكثير ، وفات على علماء الشعر منه ما شاء الله ، مما لم يحمله الينا العلماء والنقلة . وقيل عن الأصمعي : « كان ثلاثة اخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار ، فذهب رجزهم ، يقال لهم : منذر ونذير ومتنذر ، ويقال إن قصيدة (رؤبة) التي أولها :

وقاتم الأعماق خاوي المخترق

لمتنذر »[3] .

وينسب الى (أبي عمرو بن العلاء) قوله : « لما راجعت العربُ في الإسلام رواية الشعر بعد أن اشتغلت عنه بالجهاد والغزو ، واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قومٌ قلت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ؟ فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواية بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولّدون ؛ وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الأشكال »[4] .

وقال (ابن قتيبة) : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام ، أكثر من أن يحيط بهم مُحيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو انفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال .

---

١ ابن سلام ، طبقات (١٠) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣٦) .
٣ الشعر والشعراء (٩) .
٤ المزهر (١/١٧٤ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات (١٤) .

ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها »[1] .

وورد عن (أبي عبيدة) قوله : « ان ابن دؤاد بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي من الجلب والميرة ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته ، فلما فقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ، ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علينا علمنا أنه يفتعله »[2] .

وقد ينسب قوم شعراً لشاعر ، بينما ينسبه قوم لشاعر آخر ، وقد يختلف في ذلك أهل البادية عن أهل الحاضرة ، فقد روي مثلاً ان أهل البادية من(بني سعد) يروون البيت :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مربض المستنفر الحامي

للزبرقان بن بدر ، بينما يرويه غيرهم للنابغة . وقد ذكر الرواة ، ان من المحتمل أن يكون (الزبرقان) استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعه لا مجتلباً له ، وقد تفعل ذلك العرب ، لا يريدون به السرقة[3] . وقد حدث مثل ذلك في بيت شعر هو لأبي الصلت بن أبي ربيعة ، هو :

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

بينما ترويه بنو عامر للنابغة الجعدي[4] .

ونسب :

وبعد غدٍ ، يا لهف نفسي من غدٍ إذا راح أصحابي ولست برائح

الى (هدبة بن خشرم) ، وعزاه آخرون الى (أبي الطمحان) من

---

١ الشعر والشعراء (٨) .
٢ المزهر (١/١٧٥) ، ابن سلام ، طبقات (١٤) .
٣ ابن سلام ، طبقات (١٧) .
٤ ابن سلام ، طبقات (١٧) .

المخضرمين ، ثرب الزبير بن عبد المطلب[1] .

وروي أن البيت :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

وهو بيت ينسب الى (أمية بن أبي الصلت) ، وكان معروفاً عند حفظة الشعر مثل (الحسن بن علي بن أبي طالب) أنه له ، إلا أن الرواة يذكرون أن (النابغة) الجعدي ، قال للحسن : « يا ابن رسول الله ، والله اني لأول الناس قالها ، وان السروق من سرق أمية شعره »[2] . وروي أيضاً أن البيت :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما

هو من قصيدة للنابغة الجعدي ، غير أن قسماً من علماء الشعر يروبها لأمية بن أبي الصلت ، وقسماً آخر ، كان متردداً ، فقد ذكر أن راوية سأل (خلف الأحمر) عن القصيدة ، فقال : للنابغة ، وقد يقال لأمية[3] . ويظهر من هذين المثلين ، أن الرواة كانوا يخلطون بين شعري الشاعرين .

ومن ذلك نسبة الشعر الذي فيه :

دانٍ مُسفٌّ فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
فنٌ بنجوته كمن بعقوته والمشتكي كمن يمشي بقرواح

الى عبيد بن الأبرص ، أو أوس بن حجر[4] .

ونسبة الشعر :

والشعر صعب وطويل سلمه اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

الى رؤبة والى الحطيئة[5] .

---

١ السيوطي ، شرح شواهد (١/٢٧٤ وما بعدها) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .
٣ ابن سلام ، طبقات (٢٧) .
٤ الحيوان (٦/١٣٢) .
٥ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .

ويقع من ذلك شيء كثير مذكور في كتب الشعر والأدب ، وهو يدل على ان الشعر لم يكن مدوناً في بادىء أمره ، وانما كان يروى حفظاً ، ولو كان قد أخذ من كتاب لما جاز عقلاً وقوع مثل هذا الخطأ والاشتباه .

ويحدث ان شاعرين يصنعان قصيدتين من بحر واحد وروي واحد ، فيختلط أمرهما على الرواة ، يدخلون أبياتاً من هذه في تلك ، فتختلط نسبة الأبيات[1] .

وقد وضع على لسان (عدي بن زيد) العبادي شعر كثير . وقد علل (ابن سلام) سبب ذلك بقوله : « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف ، وخلط فيه المفضل فأكثر . وله أربع قصائد غرر وروائع مبرزات ، وله بعدهن شعر حسن »[2] . وقد تكون للعصبية يد في هذا الوضع . فعدي من أهل الحيرة ، وقد تعصب أهل الكوفة للحيرة ، إذ انتقل أكثر أهل الحيرة الى الكوفة فأقاموا بها ، وتعصبوا لتأريخهم القديم ، فلعل هذه العصبية هي التي حملتهم على وضع الشعر على لسانه لرفع شأن نصارى الحيرة في الشعر .

ومع اشتهار الحيرة بالكتابة ، واشتهار (عدي) بها خاصة ، إذ كان من كتاب (كسرى) بالعربية ، فإننا لم نعثر على خبر يفيد ان الرواة أخذوا شعر (عدي) عن ورقة جاهلية ، أو ديوان جاهلي مدون . ولو كان لعدي ديوان مدون ، لما وقع في شعره ما قاله (ابن سلام) .

وقد يسأل سائل : كيف يعقل أن يضع شاعر مثل حمّاد الراوية شعراً فخماً جزلاً يستعز به ثم ينسبه الى الجاهليين ؟ ولو نسبه الى نفسه لكان اليوم فخراً له ولعدّ من أكابر الشعراء فأقول : كان طلب آل مروان للشعر الجاهلي شديداً . وهذا ما صير رواية الشعر من الحرف النافعة التي كانت تدر أرباحاً طيبة لأصحابها تزيد على الأرباح التي يحصل عليها الشاعر من شعره . وقد كسب حمّاد من حرفته هذه مالاً حسناً . غير أن الإلحاح في طلب هذا الشعر والإغراء الذي أبداه عشاة للرواة ، أفسد الرواة ، وحملهم على وضع الشعر وحمله على القدماء للحصول على الأجر ، ولنيل الحظوة ، ولإظهار العلم وسعة الحفظ . وقد زاد في هذا الوضع

---

١ الحيوان (٦/١٣٢) ، (حاشية رقم ٣) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٣١) .

المنافسة الشديدة التي كانت بين الرواة ، فخلقت هذه الظروف وأمثالها شعراً جديداً منحولاً حسب على ملاك شعر الجاهليين .

ونجد في ثنايـــا كتب الأدب وفي كتب الشعر أشعاراً كثيرة منحولة وضعت قديماً على ألسنة الجاهليين، وضعت لأن الناس كانوا يومئذ في شوق عظيم وتعطش الى سماع أشعار من قبلهم، كانوا يقبلون عليها أكثر من إقبالهم على شعر معاصريهم من الشعراء ، ويجزلون لـــه العطاء أكثر من إجزالهم لسماع شعر شاعر معاصر ، إلا ما قد يكون منه في المدح والذم . وكان ربح الراويـــة القدر المتبحر بالشعر الجاهلي المتجر به العارف بنظم الشعر لا يقـــل عن ربح الشاعر العظيم ان لم يزد عليه في أكثر الأحيان . والعادة أن مكافأة الشاعر المعاصر على شعره ، لا تكون إلا في أمور لها صلة بالمجتمع ، مثل المدح والهجاء والهزل والاستخفاف والتضحيك، أما في غير ذلك فتقديره الى العلماء وأصحاب الذوق ، وهم لا يثيبون على هـذه الأمور إلا قليلاً ، ولهذا يكون تقدير الشاعر الذي لا يمدح ولا يهجو ولا يتقرب لأحد بالأمور المذكورة ، بعد موته في الغالب ، فلا ينال مثل هـــذا الشاعر من العيش ما يكفيه . ثم إن الراوية مطلوب في كل وقت ، مرغوب فيه ، وسوقه رائجة . فإذا غنّت مغنية بيتاً قديماً ، أراد السامعون معرفة صاحبـــه ، وأكثر الناس خبرة بأصحاب الشعر القديم هم الرواة ، وهم قلة ، لمـــا يجب أن يكون في الراوية من خصائص تجعله من نوادر الرجال . فالذكاء الخارق ، والعلم بالشعر وبأساليبه ، والتمكن من العربية بمفرداتها وبلهجاتها وبالقبائل وبأيام العرب وبأمثال ذلك ، هي من اللوازم التي لا تتهيأ لكل إنسان ، ولذلك لم يكن أمثـال هؤلاء الرواة إلا أفراداً نص العلماء على أسمائهم نصاً . وقد نالوا في أيامهم شهرة لم تكن أقل منزلة من شهرة أفذاذ الشعراء ، وقد تدرب عليهم فحول الشعراء ، وتخرج من مدرستهم أعاظم شعراء العرب في الإسلام . فرواية الشعر إذن وحفظه وصنعه، لم تكن حرفة سهلة يسيرة ، ولا منزلة صغيرة بالنسبة الى منزلة الشاعر ، إنهـــا لا تقل في السمو عن أرفع منزلة وصل اليهـــا الشعراء في ذلك العهد . ولم يقل دخل الراوية من عطايا الملوك وهداياهم بأقل من دخل الشاعر ، إن لم يزد عليه في بعض الأحيان ، ولهذا فليس بغريب إذا ما رأينا الشاعر ينسب شعره للجاهليين، ويرويه على أنه من شعر شاعر جاهلي قديم ، ولا ينسبه لنفسه .

وآفة ما تقدم عدم التدوين والتقييد ، ولو كان الشعر مدوناً في صحف وكتب،

ومقيداً على حجر ، لما ضاع هذا الضياع ، ولما اعتوره هذا التغيير ، الخطير ، فحوّر فيه وغيّر ، وقد أدرك أثر هذا المرض على الشعر ، شاعر اسلامي ، هو ذو الرمة ، فقال : « لعيسى بن عمر : اكتب شعري ، فالكتاب أحب إلي من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام»[1].

وقد كان للشعراء الذين ظهروا في أيام الأمويين رواة ، يروون شعرهم ، كما كانوا يهذبونه وينقحونه ويدخلون بعض التغيير عليه ، بعلم الشاعر وبموافقته ، لعلة فاتت عليه ، فقد كان لجرير رواته ، وكان للفرزدق رواته ، وكانوا يقوّمون ما انحرف من شعرهم وما قد يكون فيه من سناد وعيوب ، خفي أمرها على الشاعر ، فأدرك أمرها الرواة[2] .

رواة الشعر :

وقد ذكر علماء الشعر ان الشعراء في الجاهلية كانوا يتخذون لهم رواة يحفظونهم شعرهم حفظاً ويروونه رواية.ومعنى هذا ان أولئك الرواة كانوا يلازمون الشعراء، فإذا نظم الشاعر شعراً تلاه على راويته ليحفظه فلا ينساه ، واذا غيّر الشاعر في شعره أو عدّل فيه أشار على راويته بما غيّر وعدّل حتى يعدّل هو ويغيّر في الذي حفظه . فراوية الشاعر ، هو نسخة ثانية حافظة لشعر الشاعر ، أما النسخة الأولى ، فهو الشاعر نفسه . وقد يتهيأ للشاعر جملة رواة . ويقال لمن يحفظ الكثير من الشعر ، وللكثير الرواية هو « راوية للشعر »[3] .

وأولئك الرواة ، هم دواوين شعر ناطقة ، تحفظ المتون ،أي أصول الشعر ، كما تحفظ المناسبات ، أي الظروف التي قيل فيها ذلك الشعر . وهم أنفسهم ذوو حس مرهف ، وفهم عالٍ للشعر . إذ لا يقبل على رواية الشعر وحفظه إلا أصحاب الحس المرهف الموهوبون ، الذين لهم طبع شاعري ، وميل غريزي فيهم اليه . ولهذا تنتهي الرواية بالراوية في الأغلب الى قول الشعر ونظمه ، فيكون في

---

١ الحيوان (١/٤١) ، (عبد السلام محمد هارون) .
٢ الاغاني (٤/٢٥٦ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٠/١٥٨) ، (روى) .

عداد فحول الشعراء . والرواية هي تمرين وإعداد لقول الشعر ، ولفهم دروبه ، تساعد الموهوب في إظهار مواهبه . « فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة لمن فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلان شاعر راوية ، يريدون انه اذا كان راوية عرف المقاصد،وسهُل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب ، واذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل اليه وهو ماثل بين يديه ، لضعف آلته : كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة .

وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء ، فقال : هو الراوية ، يريد أنه إذا روى استفحل .

قال يونس بن حبيب:وإنما ذلك لأنه يجمع الى جيد شعره معرفة جيد غيره ، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة ... وقال الأصمعي : لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب »[1] .

والشعراء جميعاً ، هم في أول أمرهم بالشعر رواة شعر ، ولا يكون الشاعر منهم شاعراً حتى يحفظ الشعر ويرويه،لأن الحفظ يساعده على قول الشعر ونظمه ، ويكون تمريناً له ، ولا زال أمر الشعراء عندنا على هذا النحو ، فأكثر شعرائنا هذا اليوم هم رواة في الأصل ، حفظوا من الشعر ما ساعدهم على النظم،يضاف اليه موهبة الشاعر وسليقته فيه. وقد يقال إن الشاعر الراوية أمكن في الشعر وأقدر عليه من الشاعر ، الذي لا يروي من الشعر إلا يسيراً ، أو لايحفظ منه شيئاً ، لأن الشاعر الراوية يتعلم من فنون الأقدمين ومن خبرتهم وتجاربهم في النظم ما يخفى على من ليس له علم سابق به .

الشعراء الرواة :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من شعراء الجاهلية ، بدأوا حياتهم في قول الشعر بروايته وحفظه ، ثم صاروا من أكابر الشعراء. منهم زهير بن أبي سلمى، فقد بدأ حياته في الشعر راوية لشعر (أوس بن حجر) ، وكان أوس راوية

---

١ العمدة (١٩٧/١ وما بعدها) ، (باب في آداب الشاعر) .

الطفيل الغنوي وتلميذه[1] . ومنهم (كعب بن زهير بن أبي سلمى) ، فقد كان راوية لوالده ، ثم (الحطيئة) ، فقد بدأ الشعر برواية شعر (زهير) وآل زهير[2]. وكان (زهير) راوية (طفيل) الغنوي أيضاً ، وكان (امرؤ القيس) راوية (أبي دُواد) الإيادي[3] ، وكان الأعشى راوية لشعر (المسيب بن علس) ، والمسيب خال الأعشى[4] .

ولا نكاد نجد شاعراً لم يحفظ شعر غيره من الشعراء المتقدمين عليه ، أو من المعاصرين له . والشاعر العربي حتى اليوم ، لا يكون شاعراً فحلاً في الشعر ، إلا اذا حفظ من شعر غيره من الشعراء الفحول ، فحفظ الشعر يدربه ويقويه على نظم الشعر ، وكذلك كان أمر الشعراء الجاهليين . ويؤيد هذا الرأي ما نجده في الأخبار من حفظ الشعراء شعر غيرهم ومن مناقشتهم للشعراء في شعرهم ، مما يدل بالطبع على حفظهم له .

قال « رؤبة : الفحولة هم الرواة » ، « يريد الذين يروون شعر غيرهم ، فيكثر تصرفهم في الشعر ويقوون على القول »[5] ، فروايتهم للشعر أكسبتهم علماً بأبوابه وبفنونه ، ومكنتهم منه حتى صار يخرج على ألسنتهم سهلاً قوياً جيداً ، لما صار لهم من علم به ومران في حفظه .

ويكاد يكون لكل شاعر جاهلي راوية يصحبه ، « يروي عنه أشعاره ، وينشرها بين الناس . وربما احتذى آثاره الفنية من بعده ، وزاد عليها من عنده . وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً »[6] . ومن رواة (الأعشى) ، الراوية (عبيد) ، وكان يصحب الأعشى ويروي شعره ، وكان عالماً بالإبل ، وكان يسأله عن شعره وعن معانيه وألفاظه، وعنه أخذ الرواة مثل (سماك) أخبار الأعشى وشعره[7] . و (سماك) ، هو (سماك بن حرب) ، وهو من مشاهير الرواة .

---

١ الشعر والشعراء (١/٧٦) ، بروكلمن (١/٩٥) .
٢ الاغاني (٢/١٦٥) ، (دار الكتب) ، (٨/٩١) .
٣ العمدة (١/١٩٨) ، بروكلمن (١/٩٥) .
٤ الموشح (٥١) ، الشعر والشعراء (١/١٠٧) .
٥ البيان والتبيين (٢/٩) ، العمدة (١/١١٤) ، (باب في الشعراء والشعر) .
٦ بروكلمن (١/٦٤ وما بعدها) .
٧ الشعر والشعراء (١/١٨١) .

وكان من رواة (الأعشى) (يحيى بن متى) ، وهـو من أهل الحيرة ، وكان نصرانياً عبادياً معمراً[1] ، وله راوية آخر اسمه (يونس بن متى)[2] ، وهو كما يظهر من اسمه من النصارى كذلك ، وقد يكون هذا الشخص ، هـو الأول أي (يحيى) ، حرف النسّاخ اسمه ، فصار (يونس)[3] .

ولما كان بعض الرواة من الكتبة ، فلا استبعد أن يكون من بينهم من دوّن شعر شاعره الى جانب حفظه لشعره ، وذلك ليرجع اليه فيما إذا خانته حافظته ، أو شك في شيء منه ، أو لإجراء تنقيح في شعر شاعره ، وتوجد روايات تشير الى وقوع مثل هذا التدوين ، غير أننا لا نستطيع أن نسلم بتأكيدها أو أن نقوم بنفيها في الوقت الحاضر ، فمثل هذه الأحكام تحتاج الى أدلة قوية مقنعة ، ولا يمكن لنا التسليم بصحة تلك الروايات أو بردها في الوقت الحاضر[4] .

وقد تخصص بعض الناس برواية شعر جملة شعراء ، وتخصص آخرون برواية شعر قبيلة ، أو شعر جملة قبائل .

ويظهر ان أسلوب الحفظ والتسجيل في الذاكرة ، كان الأسلوب الشائع بين الجاهليين في ذلك الزمن في الإبقاء على النثر أو الشعر ، وقد كان هذا الأسلوب متبعاً عند غير العرب في تلك الأيام ، إذ كانوا يقيمون وزناً كبيراً للرواية ، حتى انهم كانوا يفضلون الحفظ على القراءة عن كتاب أو صحيفة ، ولا سيما بالنسبة للكتب المقدسة والكتب الدينية الأخرى وفي الأمور النابهة مثل الشعر . يرون ان في القراءة ثواباً وأجراً عظيماً ، وتعظيماً لشأن المقروء . ولا أستبعد أن تكون هذه النظرة هي التي جعلت أصحاب الرسول يحفظون القرآن ويتلونه تلاوة من غير قراءة عن كتاب ولا نظر في صحيفة ، يتلونه أمام الرسول وبين أنفسهم وبين الناس ، ولا يقرأونه عن كتاب ، مع ان منهم من كان يقرأ ويكتب وقد جمع القرآن . وكان تقدير العالم آنذاك بحفظه ، لا بما يكتبه من صحف وبما يؤلفه من مؤلفات ، ولهذا اشتهر كثير من العلماء بسعة علمهم ، مع انهم لم يتركوا أثراً مكتوباً ، لأن العلم بالحفظ لا بالتدوين ، وقد ينتقص من شأن العالم اذا تلا علمه عن كتاب ،

---

١ الاغاني (٩/١١٢) .
٢ المعرب ، للجواليقي (٤٦) .
٣ الشعر والشعراء (٢١٦ حاشية ١) ، مصادر الشعر الجاهلي (٢٤٠ وما بعدها) .
٤ بلاشير (١٠١) .

حتى ان كان ذلك الكتاب كتابه ، لأن القراءة عن كتاب لا تدل على وجود علم عند القارىء ، وشأنه اذن دون شأن الحافظ ، الخازن للعلم في دماغه المملي للعلم إملاءً ، وكانوا اذا انتقصوا عالماً قالوا : انه يتلو عن صحيفة ، أو يقرأ عن صحيفة أو كتاب ، ومن هنا قيل للذي يقرأ في صحيفة ويخطىء في قراءتها المصحفون ، قال (ابن سلام) : « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحاق ومثل ما يروي الصحفيون ما كانت اليه حاجة ، ولا كان فيه دليل على علم »[1]. وقد حمل « ابن سلام على رواة الشعر الذين تداولوه من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وانما العلم علم العلماء بالشعر وأهل الرواية الصحيحة ، أما أهل الصحف ، الذين يروون من صحيفة ، فلا يروى عنهم ، إذ لا يروى عن صحفي »[2]. وانتقصوا من علم (القاسم بن محمد بن بشار) الأنباري ، ومن روى عنه مثل (أحمد بن عبيد) الملقب (أبا عصيدة)، لأن هؤلاء (رواةٌ أصحاب أسفار) ، فهم لا يذكرون مع العلماء حفظة العلم[3] ؛ والرواة أصحاب السفر ، والصحفيون ، انما كانوا يعتمدون على الصحف، ويحلون منها ، ولذلك فقد يقع اللحن أو الخطأ منهم سهواً ، أما الرواة الحفاظ، فلا يقع ذلك منهم إلا في النادر ، ثم انهم ينشدون الشعر من مخارجه وحروفه ، وهذا هو تفسير قول (ابن سلام) وأضرابه : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى من صحفي »[4] . وفي جملة ما آخذ به (ابن سلام) الصحفيين ، أي الذين يكتبون ويدونون ما يقال لهم ، دون نقد ، انهم لم يكونوا أصحاب رأي وعلم ، بل كانوا يقبلون كل ما يقال لهم ، كما هو واضح من قوله في (ابن اسحاق) : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن اسحاق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت اليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم »[5] .

ولهؤلاء الرواة فضل كبير ولا شك على الشعر الجاهلي وعلينا أيضاً، فبحفظهم لذلك التراث القيم وبإذاعته وبنشره بين أبناء زمانهم ، أمكن وصوله الى من جاء بعدهم من عشاق الشعر والمتيمين به ، حتى وصل الى أيدي المدوّنين فدوّنوه .

---

١ المزهر (١/١٧٤) .
٢ ابن سلام ، طبقات (٥ وما بعدها) .
٣ المزهر (٢/٤١٣) .
٤ طبقات (٥ وما بعدها) .
٥ طبقات (١١) .

وصل بأفواه متعددة ، ومن الصدور ، ولهذا تعددت الروايات واختلفت القراءات وهذا شيء لا بد أن يحدث ، وهو أمر غير مستغرب ، فحفظ الصدور لا يكون كحفظ السطور . ولو كان الشعر قد دوّن في ذلك العهد ، وسجل في صحف ودواوين لما اختلف الرواة الإسلاميون في تدوينه يوم شرعوا في جمع ذلك الشعر وتدوينه في دواوين . فنجد الرواة قد يختلفون في عدد أبيات القصيدة وفي ترتيبها وفي نص البيت ، فترى روايات متعددة تمس بيتاً واحداً ، لا تمس شكل الكلمة، بحيث نرجع ذلك الى خطأ النسّاخ ، وإنما تمس اللفظة نفسها ، أو جملة ألفاظ شطر البيت أو البيت نفسه ، وكتب الشعر والأدب مليئة بأمثال هذه الأمور التي هي من حاصل الاعتماد على الرواية الشفوية في حفظ الشعر .

ومتى أنشد شاعر شعره ، وأذاع روايته بين الناس ، حفظ وطار بين طلاب الشعر وعشاقه ، لا سيما إذا كان ممـا يتصل بالناس . هذا (عميرة بن جعيل) (عميرة بن جعل) ، يهجو قومه ، ثم يندم على ما قال ، فيقول :

ندمت على شتم العشيرة بعدما مضت واستتبت للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أسطيع دفعاً لما مضى كما لا يردّ الدرّ في الضرع حالبه[1]

وفي هذا المعنى جاء شعر : (المسيب بن علس) :

فلأهـدين مع الرياح قصيـدة مني مغلغلـة الى القعقـاع
ترد المياه فما تزال غريبـة في القوم بـين تمثل وسماع[2]

فالشعر تحمله الرياح وتنشره بين الناس ، فيحفظ ، ويرويه الرواة .

وكما كان لهم فضل على الشعر في تدوينه وتخليده ، فكذلك كان لهم يـد في إفساده وفي غشه وتزييفه . فقد كان منهم من يخلط في الشعر ، ومنهم من كان يضيف عليه أو ينقص منه ، أو يصنع الشعر فينحله الشعراء ، ولما قيل للحطيئة، وهو من المخضرمين أوصِ قال : « ويل للشعر من الرواة السوء »[3] . وفي قول

---

١ الشعر والشعراء (١/٥٤٤) ، المفضلية رقم (٦٣) .
٢ المفضليات (٦٢) ، العصر الجاهلي (١٤٢) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٣٩) . (دار الثقافة ، بيروت) .

هذا الشاعر الخبير بدروب الشعر وفنونه ، شهادة كافية على ما كان لرواة الشعر من أثر في رواية الشعر ، غير أن منهم من كان يحسن الشعر ويقومه ، ذكر عن (ابن مقبل) قوله : « إني لأرسل البيوت عوجاً ، فتأتي الرواة بها قد أقامتها »[1] .

وقد تحدث (الجاحظ) عن رواة الشعر في أيامه ، وعن ألوان الشعر التي كان الرواة يبحثون عنها ، فقال : « وقد أدركتُ رواة المسجديّين والمربديين ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة ، فإنهم كانوا لا يعدّونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك كله ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والفقر والتتف من كل شيء . ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهوهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب . ثم رأيتهم منذ سنيّات ، وما يروي عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السنّ قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتياني متغزل .

وقد جلست الى أبي عبيدة ، والأصمعي ، ويحيى بن المنجم ، وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين ، فما رأيت أحداً منهم قصد الى شعرٍ في النسيب فأنشده ، وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب . ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أرَ غاية رواة الأخبار إلى كل شعر فيه الشاهد والمثل »[2] .

التصحيف والتحريف :

أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب . وقد وقع فيه جماعةٌ من الأجلاء من أئمة اللغة

---

١ مجالس ثعلب (٤٨١) .
٢ البيان والتبيين (٣/٢٣ وما بعدها) .

وأئمة الحديث، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : من يَعرى من الخطأ والتصحيف؟

قال ابن دريد : صحّف الخليل بن أحمد ، فقال : يوم بُغاث بالغين المعجمة، وانما هو بالمهملة . أورده (ابن الجوزي)[1] . وهو شيء لا يمكـــن وقوعه من الخليل ، صاحب العلم الغزير بأحوال العرب ، وقد يكون من فعل النساخ ، إن صح كلام (ابن الجوزي) ، فنسب التصحيف الى الخليل .

وسببه الخط ، إما لتشابه الحروف ، وإما بسبب عدم وجود الحركات ، فمن النوع الأول حديث ينسب الى الرسول هو : « تسمعون جرش طير الجنة » ، وكان (الأصمعي) قد سمعه في مجلس (شُعبة) ، فقال : (جرس) بالسين لا بالشين[2] . ومن هذا القبيل : ما وقع من تصحيف في شعر للحطيئة هو قوله:

وغررتني وزعمت انك لابن بالصيف تامر

أي كثير اللبن والتمر ، وقد قرأ :

وغررتني وزعمت انك لاتني بالضيف تامر

أي لا تتوانى عن ضيفك بتعجيل القرى اليه .

ومثل ذلك تصحيف الأصمعي في بيت لأوس :

يا عام لو صادفت أرماحنا لكان مثوى خدك الأخرما

فقرأه (الأحزما) ، وانما هو (الأخرما) بالراء ، وهو طرف أسفل الكتف[3] .

ومن ذلك ما وقع بين الأصمعي والمفضل عند (عيسى بن جعفر) ، فقد ناظر (المفضل) الأصمعي ، بأن أنشد بيت أوس بن حجر :

وذات هدمٍ عارٍ نواشرها تُصمِت بالماء تولباً جدعا

فقال له الأصمعي : « هذا تصحيف ، لا يوصف التولب بالإجذاع ، وانما

---

١ المزهر (٢/٣٥٣ وما بعدها) .
٢ المزهر (٢/٣٥٤) .
٣ المزهر (٢/٣٥٥) .

هو جدعا . الجدع : السيء الغذاء . قال : فجعل المفضل يشغب ، فقلت له : تكلم كلام النمل وأصب . لو نفخت في شبور يهودي ما نفعك شيئاً »[1] .

وقرىء يوماً على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدير أفرد جحشها

فقال أعرابي حضر المجلس للقارىء ضل ضلالك أيها القارىء ! انما هـي ذات الدبر ، وهي ثنيةٌ عندنا ، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد[2] .

وقد أوردت الكتب أمثلة كثيرة على التصحيف ، وقع فيه كثير من العلماء ، من ذلك ما وقع لأبي عمرو وللأصمعي ، ولأبي حاتم ولكبار علماء اللغة ، ويعود سببه الى التنقيط ، فالحروف مثل الجيم، والحاء ، والخاء ، تميز بينهـا النقط ، فإذا أخطأ الكاتب في وضع النقطة في محلها ، وقع التصحيف . وقـد يقع ، ولا يقع خلل في القراءة ، وإنما يتبدل المعنى ، دون أن يشعر القارىء بوجود ارتباك في معنى المقروء ، وقد يقع في الأعلام من أسماء الرجال والنساء والأمكنة ، وقد وقع التصحيف في الكتب بسبب السهو في النسخ ، أو جهل النساخ ، ومن ذلك ما وقع في كتاب (العين) وفي كتب لغوية وأدبية ثمينة ، أمكن رد بعضـه الى الصحيح ، ولم يمكن تصحيح بعض آخر ، لصعوبة تعيين المراد[3] .

وقد روى (العسكري) قصة طريفة على التصحيف والتحريف ، ذكر أنـه « كان حيّان بن بشر قد وُلي قضاء بغداد ، وكان من جملة أصحاب الحديث فروى يوماً أن عرفجة قطع أنفه يوم الكِلاب ، فقال له مستمليه : أيها القاضي، انما هو يوم الكُلاب ، فأمر بحبسه ، فدخل اليه الناس ، فقالوا : ما دهاك ؟ قال : قطع أنف عرفجة في الجاهلية ، وابتليت به أنا في الإسلام »[4] .

---

١ مجالس العلماء ، للزجاجي (١٤) ، العسكري ، التصحيف والتحريـف (١٠٤) ، الفاضل والمفضول (٨٢) ، المصون (١٩٢) ، الحيوان (٤/٢٥) ، انباه الـرواة (٣/٣٠٢) .

٢ الشعر والشعراء (١/٢٧) .

٣ المزهر (٢/٣٥٣ وما بعدها) ، النوع الثالـث والاربعون معرفـة التصحيـف والتحريف) .

٤ المزهر (٢/٣٥٣) .

الخلط بين الأشعار :

وبسبب اعتماد الرواة على الذاكرة في حفظ الشعر وروايته ، وأنفة المتقدمين منهم من تدوينه ، ومن الرجوع الى الصحف ، وقع الخلط في شعر الشعراء ، فصاروا ينسبون شعراً لشاعر ، بينما هو من شعر شاعر آخر . ونجد في كتب الأدب أشعاراً تنسب الى شاعر ، ثم تنسب الى شاعر آخر ، أو الى شاعر ثالث في موضع آخر من الكتاب ، أو في كتب أخرى . وما كان ذلك ليقع ، لو كان القدماء قد أخذوا العلم بطريق الكتابة والتدوين . من ذلك مثلاً الشعر :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

فإنه ينسب لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، وينسبه بنو عامر للنابغة الجعدي[1] . ومن ذلك قصيدة :

تطاول ليلكِ بالأثمد ونام الخليُّ ولم ترقد

فقد نسبت لامرىء القيس الكندي ، ونسبت لعمرو بن معدي كرب ، ونسبت لامرىء القيس بن عانس[2] .

وللسبب المتقدم وقع خلط في عدد أبيات الشعر ، فقد زاد بعض الرواة في قصيدة شاعر ، بينما نقص رواة آخرون عدد أبياتها ، وقد يدخلون في القصيدة ما ليس منها بسبب اختلاط الشعر على الراوية ، وما كان هذا ليقع لو ورد الشعر مدوناً منذ أيام الجاهلية .

ومن ذلك أيضاً ورود الشعر بروايات وبأوجه مختلفة ، فقد ورد الشعر المنسوب لأفنون التغلبي :

لو أنني كنت من عادٍ ومن ارم غذى سخل ولقانا وذا جدن

بروايات مختلفة ، كما قرئت بعض ألفاظه بأوجه مختلفة من أوجه الإعراب[3] ،

---

١ المزهر (١/١٨٣) .
٢ السيوطي ، شرح شواهد (٢/٧٣١) .
٣ مجالس العلماء (٤٢ وما بعدها) .

وما كان ليقع هذا الإختلاف لو كان الشعر قد ورد مدوّناً أولاً ومشكولاً ثانياً، فلما جاء رواية بالألسن وقع فيه هذا الاختلاف . ونجد العلماء يغلط بعضهم بعضاً في اعراب ألفاظ الشعر ، تتغير معانيه بقراءتها بأوجه متعددة من الأعراب ، كما غلط بعضهم بعضاً وهاجم بعضهم بعضاً هجوماً عنيفاً خرج على حدود الأدب واللياقة بسبب الاعجام ، كما في (تعتر) و (تعتز) في بيت الحارث بن الحلزة :

عنتــاً باطلاً وظلماً كــما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء[1]

ونجد علماء الشعر والأدب يروون شعر شاعر بصور متباينة في كتبهم ، فتجد (الجاحظ) مثلاً ، يروي أبيات شعر لشاعر ، ثم يرويها بشكل يختلف عمــا ذكره لذلك الشاعر في موضع آخر من كتابه ، وذلك إما سهواً ، وإما باختلاف رواية ، واما من وقوع الزلل في اللسان . وتجد وقوع مثل ذلك في كتب اللغة ، فقد ذكر (ابن منظور) بيتاً للأعشى هو :

فأصبح لم يمنعــه كيد وحيلة بساباط حتى مات وهو محرزق

ثم ذكره بعد سطرين على هذه الصورة :

هنالك ما أغنته عزة ملكــه بساباط،حتى مات وهو محرزق[2]

وقد يقع ذلك عن تعمد ، بسبب الاستشهاد في تأييد مسألة نحوية أو لغوية . فقد روي أن سائلاً سأل (أبا عمرو بن العلاء) عن جمع يــد من الإنسان ، فقال : أيــد ، وأنكر أن تكون الأيادي إلا في النعم ، وقال (الأخفش) : « أما إنها في علمه ، غــير أنها لم تحضره ، ثم أنشد بيت (عــدي بن زيد العبادي) :

أنكرت ما تبينت في أياديـ ـنا واشناقهــا الى الأعناق

بينما يروى :

ساءها ما بنا تبين في الأيدي واشناقهــا الى الأعناق[3]

---

١ مجالس العلماء (١٨) .
٢ اللسان (٣١١/٧) ، (سبط) .
٣ مجالس العلماء ، للزجاجي (١٦٢) .

وقد كان العلماء يتحذلقون في مثل الأمور،ويبحثون جهدهم عن الشاذ والغريب في الشعر ، بل أخذ بعضهم يفتعل الغريب ، ويضع الشاذ ، فينسبه الى المتقدمين لإفحام الخصم ، ولإظهار مقدرته العلمية وبراعته في علوم اللغة أمام الخلفاء والحكام وهذا مما أساء بالطبـــع الى العلم ، إذ أدى الى دخول المصنوع في الشعر ، والى الإساءة الى سمعة العلماء . وتجد في (مجالس العلماء) للزجاجي ، مجالس فيها من استهتار كبار العلماء بعضهم ببعض ، ومن وضع أحدهم على الآخر ، ما يبعث على الشفقة على حال قسم منهم ، لما بلغوه في كلامهم وفي تصرفاتهم من الإسفاف بسبب محاولتهم التقدم عند الحكام ، بالمنزلة والجاه ونيل المال .

على كل حال ، فقد خفت فوضى الرواية ، بعد إقبال الناس على التدوين ، وتحبير الشعر وأمالي المجالس وأقوال العلماء وآرائهم على القراطيس ، خاصة بعد شيوع الاستنساخ وظهور جملة نسخ للكتاب الواحد ، فضبطت بهذه الطريقة الرواية بعض الضبط ، وصرنا أمام روايات متعددة للقطعة أو للقصيدة ، وقد سدد هذه الطريقة وزاد في تثبيتها إقبال العلماء على نشر المخطوطات نشراً حديثاً بواسطة الطباعة فوفرت هذه الطريقة نسخ المخطوطات القديمة للباحثين ، ويسرت لهم بذلك الوقوف عليها مما مكنهم من إبداء نظرهم على ما جاء فيها من روايات عن الشعر العربي القديم .